مظاهر الإعجاز القرآني
تحليل لبعض عناصر المنظومة العقائدية في ضوء الدراسة المقارنة للأديان والأنثروبولوجيا _ القسم الثاني-

د. رشيد ميموني*

III. منهج القرآن في دحض العقائد الوثنية

1. كيفية عرض القرآن للآلهة المتخصصة

نتوجّه الآن إلى منهج القرآن في عرض العقائد الوثنية ثم دحض أدلّتها قصد التّأكد من صدق الفرضيات. تجدر الإشارة من الناحية المنهجية إلى أن هذه الدراسة لا تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل جوانب الموضوع لأن هذا الأمر يتطلب منّا أخذ القرآن بأكمله كوحدة دراسيّة أي تناول كل الآيات الواردة في هذا السياق إلا أننا سوف نتعرض لبعض الآيات النموذجية كعينة تمثيلية تتضاعف قدراتها التحليلية بفضل البلاغة العالية للقرآن وهذا يعد كافياً في نظرنا لأنّه يفي بالمقصود المتمثل في تقديم محاولة تأسيسية لإبراز جانب جديد من الإعجاز القرآني عرض وفق توجه منهجي يتحرى الموضوعية ويهدف إلى إنارة السبيل لبحوث أخرى في هذا الميدان. في البداية نطرح بعض التساؤلات التوجيهية :

- كيف يعرض القرآن العقائد الوثنية ؟
- هل يذكر أسماء الآلهة ؟
- هل تنتمي كل الآلهة المذكورة لفضاء ديانة قريش وقبائل الحجاز ؟ أم ذكرت آلهة خارجة عنها ؟

---

* أستاذ محاضر في علم الاجتماع، جامعة الجزائر.

نسجل أولا أن القرآن خصص آيات كثيرة تتعرض لمختلف جوانب عقيدة الشرك وعبادة الآلهة والأصنام والجن... إلا أن ذكر أسماء الآلهة المعبودة يكاد لا يظهر فالقرآن لا يذكر سوى ثلاثة آلهة من الحجاز.[1] تجدر الإشارة إلى أن الإله "المشهور" لدى قريش "هبل" غير وارد. بالمقابل وردت خمس أسماء لآلهة خارجة عن فضاء الحجاز[2]. نسجل كذلك أن آلهة قوم إبراهيم الحنيف محطم الأصنام غير واردة. قد نتساءل لماذا هذا العدد الضئيل من الآلهة المذكورة ؟ اطلعت على رأي واحد بخصوص ذلك يعتمد صاحبه[3] على التفاسير مرجحا سببًا ذلك... إلى أن الله اختار فقط بعض أسماء لآلهة دالة لأنه يكره أن تدوّن في القرآن الذي يُتعبد به في تلاوته أسماء لآلهة بغيضة. قد يمثل هذا الطرح جزءا من الجواب ولكن يبدو لنا أن هناك أسبابا عميقة أخرى. نستنير هنا بفكرة رائعة قدّمها المرحوم "مالك بن نبي" في كتابه "الظاهرة القرآنية"[4] إذ عقد فيه مقارنة بين عرض قصة سيدنا يوسف كما وردت في التوراة وفي القرآن، فوجد أن التوراة تذكر بإسهاب أسماء المشاركين في القصة: إخوة يوسف، امرأة العزيز... في حين أن القرآن لا يذكر سوى اسمين وهما يعقوب ويوسف عليهما السلام وأرجع سبب ذلك إلى أن القرآن لا يركز على الأسماء والتفاصيل بقدر ما يركز على عقيدة التوحيد والسّمو الأخلاقي والعبر المستخرجة من المحطات الكبرى لقصة يوسف. قياساً على ذلك بالنسبة للآلهة، فإن العبرة لا تكمن في سرد أسمائها لأن عددها لا متناه تقريبا وهناك حتى ظاهرة استعارة آلهة من حضارة لأخرى بعد تغيير التسمية إذ إنّ بعض آلهة

1. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ سورة النجم، من 19 إلى 22 ـ 2. ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ سورة نوح، 23 ـ 3. بدون اسم «آلهة الشرك... لماذا أخلد الله ذكرها في القرآن؟» العربي، جريدة أسبوعية، الجزائر: 28 جانفي، 2000، ص 8 ـ 4. بن نبي مالك. *الظاهرة القرآنية*، دمشق، دار الفكر 1981، الطبعة الأولى 1947.

قريش مثلا استعيرت من الحضارة البابلية أو الآشورية وإنّما تكمن الحكمة القرآنية في وضع إستراتيجية لاستئصال الآلهة من نفوس النّاس وعقولهم.

2. خصائص المنهج القرآني في تفكيك منظومة الآلهة المتخصّصة

لقد قام القرآن بعملية التفكيك المنهجي لكلّ الأدلّة التي ترتكز عليها منظومة الشرك من حيث العقائد والأساطير ثمّ الشعائر. يتبيّن من خلال دراسة الأديان المقارنة والأنتروبولوجيا أنّه يمكن وضع الآلهة في أصناف محدودة نابعة من مسار انحرافي مرتبط بعوامل مغروسة في نفسيّة الإنسان كالخوف والقلق والحيرة أمام المآسي والفقر والتخوف من المستقبل والمجهول والموت...، فإنّ القرآن لم يلجأ إلى سرد أسماء الآلهة وإنّما توجه إلى كلٍ صنف إله فنفى بأدّلة وجوده ومشاركته في القرار الإلهي مسترجعاً من خلال ذلك مختلف الصلاحيات للإله الواحد كالخلق والتدبير في كل المجالات إضافة إلى بيان وظيفة كل مجال وتسخيره لتحقيق السعادة للإنسان. وأخيراً وظّف القرآن التحليل المنطقي ليبيّن أنّ عظمة الكون والتناغم بين مختلف أجزائه لدليل قاطع على وجود إله واحد مع استحالة وجود آلهة متخصصة لأنّه لو قدر هذا الأمر لاستحال وجود ناموس واحد يسيّر الكون ولأدّى ذلك إلى انهياره وإلى شن حرب صلاحيات بين الآلهة ثمّ يشير القرآن مراراً إلى زوال الكون قبل يوم القيامة فكيف سيكون مصير تلك الآلهة المكلّفة بجزء من الكون كالشمس والنجوم والجبال والبحار..إلخ. تلك المنهجية واضحة في القرآن وهنا سنسوق بعض الأمثلة: تذكر سورة نوح حوار سيدنا نوح مع قومه. يتهرب قومه أمام الأدّلة التي ساقها لهم سيدنا نوح بدون انقطاع ليلا ونهاراً ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**﴾[1].

1. سورة نوح، الآية 7.

وبعد عرض الأدلّة المفحمة لم يستطع أفراد قومه ردّها، إنّما تمادوا في العناد وإليكم الآيات التي أخرست ملأ قوم نوح وأبطلت مبرراتهم لعبادة آلهة مخصصة مع الإشارة إلى أنّ الأدلّة المنطقية المقدّمة تنطبق بحكم عالميتها على كل صنف إله موجود في الحضارات الأخرى ماضية أو حاضرة أو مستقبلية: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا**﴾[1] تنفي الآية وجود إله السماء أو إله المطر وتسترجع لله سبحانه وتعالى وظيفة خلق الماء ونقلها عبر الأراضي. ﴿**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾[2]. هناك نفي لكل شكلٍ من أشكال آلهة الخصوبة والثروة والرخاء وكذا إله الأنهار ثمّ تتتابع الآيات في نفس السورة وهي تفنّد كل المزاعم المرتبطة بالآلهة: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾[3]. تشير تلك الآية إلى انفراد الله بخلق الإنسان مع الإشارة إلى أطوار الخلق نافية بذلك كل الأساطير التي حيكت حول الإنسان وعلاقته بالآلهة. والعجيب في الأمر أنّ القرآن يذكر العديد من المخلوقات بعينها أو بالإشارة إلى صنفها ولكنّه يختص الإنسان فقط بذكر مراحل خلقه بالتفصيل كما ورد في سورة "المؤمنون" و"الحجّ" و"الزمر" بالخصوص.

ثمّ يواصل القرآن على لسان سيدنا نوح عرضه التفكيكي للعقائد الوثنية: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾[4]. نشاهد هنا عمليّة إزالة الفكر الخرافي (démythologisation) بكل ما يتعلّق بالسّماء بنجومها وكواكبها. يرى عالم الاجتماع الألماني الشهير "ماكس فيبر" (Max Weber) أنّ الدّيانة المسيحية ثمّ الحداثة (مع التطور العلمي) قد ساهما في نزع القداسة من العالم «processus de désenchantement du monde»

---

1. سورة نوح، الآية 11 ـ **2**. سورة نوح، الآية 12 ـ **3**. سورة نوح، الآيتان 13 و14 ـ **4**. سورة نوح، الآيتان 15 و16.

في الحقيقة فإنّ تلك العمليّة بلغت أوجها مع القرآن الكريم، إذ إنّه لا يكتفي بتبديد أوهام الخرافة ولكنّه يوضّح أيضاً وظيفة كل عنصر. يبيّن في عدّة سور أنّ النجوم مثل الشّمس أو الشّعرى، والكواكب مثل القمر لها مسار معيّن ووظائف عديدة :

فالشّمس تمدّ كل مخلوقات الأرض بالضوء والحرارة لتوفير شروط الحياة، فالنجوم والقمر وسيلة للاهتداء عند السفر ومقياس لحساب الزمن كما أنّ تلك الأجسام الضخمة ستحطم قبل يوم القيامة (أنظر مثلا سورة "التكوير" و"الانفطار" و"الانشقاق"). أختتم هذه العمليّة الاستدلالية في هذه السورة بالآيات التالية: ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا، لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا**﴾ [1].

ينفي الله خرافة إله الأرض وبالمقابل يبيّن طبيعة العلاقة التي تجمعنا بها إذ تعدّ المادة المكوّنة لجسم الإنسان ومصدر طعامه كما أنّها سخّرت لنا للانتفاع بخيراتها وللتنقل السهل.

- نموذج لمنهجية الدّحض الموّجه لصنف آلهة الخصوبة

إنّ التأمل في منهجية الدحض القرآني يظهر لنا جوانب أخرى نذكر منها :

أ. إنّ عمليّة مخاطبة الإنسان ولفت انتباهه للحقائق الجوهرية الكبرى التي يدركها بعقله وحواسه قصد إعادة بناء منظومته الدّينية على أسس مفاهيمية صحيحة تمزج بين صور بلاغية متنوعة رفيعة ومظاهر للإعجاز العلمي.

ب. تنتهج كل مجموعة من الآيات مسعى توضيحياً مميّزاً إذ يتمّ إضافة خصائص أو وظائف إضافية لكل عنصر مذكور فيها (بالمقارنة

1. سورة نوح، الآيات 17 إلى 20.

مع مجموعة أخرى من الآيات)، الأمر الذي يسمح بالإحاطة بالزوايا المتعدّدة لظاهرة ما وبعث الإنسان على التأمل حول التنوّع المذهل للكائنات المخلوقة كما قد تفيد أيضًا هدف دحض كل الأشكال التي تتلبس بها الآلهة (ظلما) وتوهم الإنسان بقدرتها (في الأديان الزائفة). فمثلا وردت آيات في سور عديدة تشير إلى عملية خلق النبات والأشجار والجنات فوق الأرض بمختلف أشكالها وإلى تنوع مصادر المياه؛ كل ذلك إبطالا لكل التمظهرات التي تأخذها آلهة الخصوبة والأمطار والأنهار والزراعة في الحضارات المختلفة.

نسوق الآن بعض الأمثلة المتعلقة بمجال المطر والأنهار والزراعة والأشجار التي تبيّن تعدّد زوايا النظر إلى ظاهرة ما وتنوّع الصيغ البلاغية المستعملة لشرح خاصيتها (أو وظائفها)، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]. أمّا في سورة النمل فيقول تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وللإشارة تكرر خمس مرات في جزء من السورة الأسلوب البلاغي التالي: "**أمّن + فعل ماضي مرتبط بالخلق... وتنتهي بالتساؤل الاستنكاري" أ إله مع الله ؟". ورد هذا**

---

1. سورة النحل، الآيات 10 إلى 13 ـ 2. سورة النمل، الآيتان 60 و61.

الموضوع في سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1]. هناك توظيف لصورة بلاغية أخرى في سورة يس قصد تنوّع طرق تنبيه الإنسان ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[2]، نشير في هذا الصدد إلى الاستعمال المكثف لمدلول "آية" في صيغ مختلفة مثل "ومن آياته" التي وردت سبع مرّات في سورة الروم.

نجد في سورة الواقعة نمطاً آخر من التساؤل الإيضاحي لتصحيح المفاهيم وإثبات القدرة الإلهية المطلقة (خلقا وإزالة) بخصوص الإنسان والنّبات والماء والنّار، علما أنّ القضايا الثلاثة الأولى هي بمثابة الرد على آلهة الخصوبة: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ، أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[3] ﴿...أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[4]، ﴿أَفرءيتم الماءَ الذِي تَشرَبُون، أَأَنْتم أَنْزَلْتُمُوه مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْن الْمُنْزِلُون، لَو نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَولاَ تَشكُرُون﴾[5].

تجدر الإشارة إلى إمكانية رصد كلمات محورية في هذه الآيات ممثّلة في أفعال دّالة على القدرة الإلهية المطلقة مثل : خلق، ذرأ، أنشأ، فطر، فعل، جعل، سخّر، قدّر، أنزل، أحيا، أمات، أخرج... الخ.

---

1. سورة الروم، الآية 48 ـ 2. سورة يس، الآيات 32 إلى 35 ـ 3. سورة الواقعة، الآيتان 58 و59 ـ 4. سورة الواقعة، الآيات 63 إلى 65 ـ 5. سورة الواقعة، الآيات 68 إلى 70.

تعدّ تلك الآيات عيّنة فقط بخصوص صنف واحد من الآلهة وهو إله الخصوبة، وبإمكاننا توظيف نفس المنهجية للنظر في أدلّة القرآن المتعلقة بكيفية خلق الإنسان أو للردّ على أصناف أخرى كإله القوة أو الحرب من خلال ذكر الآيات التي تبيّن قدرة الله المطلقة وسلطته الكاملة على المخلوقات كالآية التالية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]. أو تلك التي تبيّن صفاته تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[2]. دون أن ننسى التحدّي الأزلي الموّجه للآلهة (المزعومة): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

كما يطالب القرآن، بعد وصف ملكوت السماوات والأرض وعرض مخلوقات الله، بتحديد من هو الخالق: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[4]. يطلب الأمر دراسة الردّ القرآني على الأشكال الأخرى للآلهة في الأديان العالمية كإله النور، الظّلام، الجمال، النّار، الجبال... والقيام ببحوث أخرى، بينما نحن نكتفي في حدود هذا البحث بالإشارة إلى الخطوط العريضة لمنهج الدّحض القرآني للأصنام المدّعمة بأدلّة عقليّة قبل تحطيمها بعد فتح مكة. يباشر القرآن بعمليّة إزالتها من قلوب وعقول عرب قريش من خلال عرض حقيقتها ونفي صفات السمع والبصر والنطق والمشي والأكل

1. سورة الزمر، الآية 67 ـ 2. سورة الحشر، الآيتان 23 و24 ـ 3. سورة الحجّ، الآيتان 73 و74 ـ 4. سورة لقمان، الآية 11.

والتمتّع بالاستقلالية الذاتية ثمّ يزيل دواعي عبادتها من خلال بيان أنّها لا تقدّم أية خدمة للإنسان أي أنّها لا تنفع ولا تضر فضلاً عن الدّفاع عن نفسها أو معرفة متى تبعث. إلى جانب النّفي النظري قام سيّدنا إبراهيم بتحطيم الأصنام لإحداث صدمة نفسيّة لدى قومه وانتهى بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]. هذا العرض المنطقي يسع كلّ أشكال عبادة التماثيل عبر العالم.

VI. أبحاث Eliade وإثبات صواب منهج الدحض القرآني

ومن العوامل التي ساعدتنا على توسيع آفاق هذا البحث واكتشاف عمق القرآن في تناول العقائد العالمية قراءتنا لأهم كتاب للعالم الشهير في دراسة مقارنة الأديان، Eliade المقدّس والمدّنس[2] الذي يعتبر حوصلة عن دراساته الميدانية، حيث يتعرض فيه لأهم أشكال العبادات عبر العالم ماضياً وحاضراً ويوّضح كيفيّة إضفاء القداسة على أجزاء من الطبيعة (سماء، أرض، مياه، شجر، حجر...).

بعد قراءتنا للكتاب اندهشنا عندما لاحظنا أنّ كثيراً من العقائد الأساسية المنتشرة في العالم تجد صدى وردّا لها في القرآن، سنكتفي بذكر عنصرين وردا في شرح عمليّة الابتعاد التدريجي عن نمط التوحيد نحو التعددية[3] :

1. عمليّة الابتعاد التدريجي عن التوحيد وتكوين الآلهة الثانوية

تحدّثنا سابقاً عن الآلهة المتخصّصة. لا يكتفي "**Eliade**" بذكرها إنّما يشرح عمليّة إنشائها مدعّماً بأمثلة : يخلق الإله الأعلى العالم

1. سورة الصافات، الآيتان 95 و96.
2. Eliade, Mircea. *Le sacré et le profane*, Paris, éd. Gallimard, 1965.
3. Ibid. voir sous chapitre intitulé : *le dieu lointain*, pp. 105 à 137.

ثمّ يشعر بالتعب فينسحب ويكلّف الآلهة الثانوية بتسيير العالم وفق تخصّصاهم يتبيّن جليا أنّ هذا الاعتقاد لا يقتصر على قريش كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ..﴾[1] إنّما هو مسعى تحريفي عام يخضع لقوانين محدّدة في الزمان والمكان التفت إليه القرآن ورد عليه بمنطقه الحازم :

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[2]، أو ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ...﴾[3].

وهذه الخاصيّة العالميّة في الأديان الوثنية المرتبطة بأغوار نفسيّة الإنسان مشخّصة بصفة بارعة في القرآن في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾[4].

تزداد غرابتنا وإعجابنا عندما يسرد Eliade أمثلة من شعوب عدّة تبين أنّه لا يتمّ اللّجوء إلى الإلــه الأعلى إلاّ أثناء المصائب الكبرى (كوارث طبيعية، جفاف، مرض، موت...) في كلّ هذه الدّيانات البدائية، فـإنّ العبادة غير موجّهة للإله الأعلى... إنّما يتمّ تذكّره والتضرع إليه كآخر ملاذ عندما تفشل كل المساعي الأخرى تجاه الآلهة أو الأجداد أو الشيّاطين"[5].

---

1. سورة الزمر، الآية 3 ـ 2. سورة البقرة، الآية 254 ـ 3. سورة الأحقاف، الآية 33 ـ 4. سورة يونس، الآيتان 22 و23.
5. Eliade, op.cit. p. 108.

1. عمليّة تـــأليه الشّمس

إنّ عبادة الكواكب والشّمس كانت منتشرة في كل القارّات. مستنداً على أمثلة عديدة يشير Eliade أنّ هناك في إطار المسعى العالمي للابتعاد عن الإله الواحد نزوع نحو تحويل بعض صفات الإله خاصة منها القوة والجبروت إلى النجوم والكواكب وخاصة إلى الشّمس نظراً لضخامة حجمها وتأثيرها البالغ في الأرض وعلى حياة الإنسان.

« إنّ رمزية الشّمس تعبّر عن قيّم دينيّة كالاستقلالية، القوّة، الملك والذكاء، ولذا نشاهد في بعض الثقافات عمليّة تأليه الشّمس Processus de solarisation de divinité »[1]

وفي ضوء هذه التوضيحات ندرك على حقيقتها أهميّة المسار التلقيني نحو التوحيد الذي سلكه سيّدنا إبراهيم الذي مرّ عبر النفي المنطقي لتأليه الأجرام السّماوية كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وفي سياق الأساطير المتعلقة بآلهة السّماء والأرض سنختم بتناول الاعتقاد "بعمود السّماء" عبر الأديان. ذكر Reeber : « يؤمن هنود أمريكا الشمالية بـــ Manitou كقوّة ما فوق الطبيعة تتجسّد

1. Eliade. op. cit, p. 136.

2. سورة الأنعام، الآيات 75 إلى 79.

في الكائـــنات أو الأشياء... ويشيّدون أعمدة طوطمية يعتقدون أنّها تمسك قبّة السّماء»[1].

وجد Eliade هذا الاعتقاد سائداً عند الهنود وفي جزر الكناري وفي كولومبيا البريطانية وفي أندونيسيا وفي أوروبا عند الجرمان والسلت... وذكر: «إنّ العمود المقدّس عند قبيلة Achilpa (في أستراليا) يحمل العالم ويسمح بالاتصال مع السّماء»[2]. لننظر الآن إلى الإشارة الواضحة لهذا الاعتقاد في القرآن غير الوارد في التفاسير لأنّها تعني أديان خارجة عن فضاء الأديان المعروفة في ذلك الزمان، يقول الله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[3] وقوله جل شأنه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3].

هناك الكثير من المسائل الاعتقادية التي لم أتطرّق إليها مثل دراسة وسائل القرآن لطمأنة البشر أمام الألغاز الكونية الكبرى والمخاوف المرتبطة بوضعية الإنسان (الموت، المرض، العقم، تقلب أحوال المعيشة، الكوارث الطبيعية) علماً أنّها المنفذ الرئيسي لإقدام الإنسان على الاعتقاد بالآلهة ذات الوظائف المتعدّدة.

أدرك Berque في دراسة عميقة للقرآن الكريم أنّ : «مجموعة الانتظامات والتماثلات تدل بدون أدنى شك عل وجود نظام سام كامن في النص القرآني...»[4]، وذكر أيضاً أنّ الإنسان لا يملك الكثير من مفاتيحه. تعدّ في نظرنا منهجيّة تعرض القرآن لكل أشكال الدّيانات عبر العالم أحد مجالات النظام القرآني المـــعجز.

---

1. Reber, Michel, *Les grandes religions dans le monde*, Toulouse, éd. les essentiels de Milan, 1999, p. 11

2. Eliade. op.cit, p. 36.

3. سورة الرّعد، الآية 2 ـ **3.** سورة الحج ، الآية 65.

4. Berque, Jacques, *Le Coran, essai de traduction*, Paris, Ed. Albin Michel, 1995, 2éme éd. P. 717.

ومن المغالطة بمكان أن نظن أنّ الأمر يتعلّق فقط بأديان الماضي، يسجّل الباحثون والملاحظون الرجوع القويّ لمعتقدات وثنية جرّاء المخاوف التي أفرزتها العولمة ولجوء بعض النّاس إلى **"الأديان المركبة من جديد** (les religions recomposées) والفرق الدّينية (sectes) والأديان الباطنية. نجد أيضاً أنّ الأفلام الخيالية توظف تلك المخاوف من خلال اللّجوء إلى بث أساطير مرتبطة بأبطال يشبهون آلهة القوة كـ (Spider man, Superman) امتدّ الأمر إلى أفلام الأطفال والرسوم المتحركة (Harry Potter) التي تتناول مواضع السحر والشياطين وآلهة الظلام والحيوانات الأسطورية الشريرة.

أثبت القرآن بحقّ أنّه الفرقان الذي يفصل بين الحقّ والباطل والمصدر الأوحد لهداية البشر رحمة للعالمين، من خلال منهجه التمحيصي لكل أشكال العقائد التي توهم للإنسان أنّها الحقيقة المطلقة. يقع على عاتق الباحثين الاستلهام من القرآن والاعتماد عليه كدليل معرفي لإثبات راهنية الدّين الإسلامي وعالميته.